الموقع الجغرافي لحلب وبيئتها الطبيعية

عادل عبد السلام

جامعة دمشق

تتمتع مدينة حلب بموقع جغرافي فريد من نوعه، تميزه بيئة جغرافية طبيعية ذات خصائص معينة جعلت من حلب أهم مدينة ومركز تجاري في شمالي سورية الطبيعية منذ آلاف السنين. إن أبرز خصائص الموقع الجغرافي وبيئته الطبيعية هي:

١ ـ حلب في مكان وسط يبعد مسافات متقاربة عن الفرات وعن البحر المتوسط.

٢ ـ تقع حلب في منخفض من الأرض شبيه بالصحن الواسع تتوسطه تلة تؤمن الحماية والدفاع.

٣ ـ تقع حلب ومنخفضها في بيئة جغرافية سهلية ـ هضبية متموجة السطح مترامية الأطراف مما يسهل الحركة والعمل والانتقال وشق الطرقات إليها ومنها.

٤ ـ تحيط الجبال والمرتفعات بالسهل ـ الهضبي من الشمال (طوروس) والغرب (الجبال الساحلية) والجنوب (الجبال الوسطى). في حين تنفتح الأرض باتجاه الشرق والفرات مما يربط حلب وبيسر مع الظهير الجغرافي الآسيوي القريب والبعيد بطرق مواصلات سهلة، منها طريق الحرير. وهي طرق مفروضة عملياً.

٥ ـ تتصل حلب بالأصقاع الواقعة وراء الجبال المذكورة عن طريق ممرات ومغارات محددة. فكأن حلب وظهيرها القريب خزان يستقبل ما يأتيه من الشرق الآسيوي ليدفع به عبر الممرات إلى الشمال والغرب (آسيا الصغرى والبحر المتوسط) وباتجاه الجنوب السوري. وليستقبل ما يأتيه من الاتجاه المعاكس. فحلب موزع ومستقبل تجاري وحضاري قديم.

٦ ـ ساعد توافر الماء من نهر قويق (القوجان) ومن عدد من الينابيع والآبار على قيام المدينة واستمرار إعمارها دون انقطاع.

نشأت مدينة حلب قبل نشوء طريق الحرير، الذي هو تسمية أُطلقت على واحد من الطرق التجارية القديمة المؤدية إلى حلب. فحلب ذات ماض تجاري وحضاري قديم وعريق، كان لموقعها الجغرافي أثر كبير في جذب التجار وطرق التجارة إليها. فانصبت فيها الطرق وخرجت منها في جميع الاتجاهات. ومنها طريق الحرير الذي ازدهرت التجارة على طوله لوجود حلب كواحدة من ابرز محطاته، كما نمت حلب وأثرت وتطورت اقتصادياً واجتماعياً لمرور خطوط تجارة طريق الحرير فيها.

يمكن تقسيم سورية الطبيعية إلى وحدتين جغرافيتين إقليميتين كبيرتين الأولى سورية الشمالية والثانية سورية الجنوبية. تفصل بينهما تضاريس هضبية ـ جبلية تنبثق من سلاسل بلاد الشام الغربية (سلسلة الجبال الساحلية السورية ولبنان الغربية وفلسطين، ثم سلسلة جبال شرق أغوار الانهدام السوري الإفريقي المؤلفة من كرداغ وحازم ـ الوسطاني والزاوية ولبنان الشرقية وشرقي الأردن)، وهي السلاسل التي تحجب عالم الداخل السوري عن عالم البحر المتوسط وتعيق الاتصال بينهما إلا عن طريق ممرات طبيعية ذات ماض تاريخي موغل في القدم تخترق السلاسل الجبلية الغربية في أماكن محددة.

تنحصر دراستنا في إطار (حلب وطريق الحرير) بالوحدة الجغرافية الشمالية من الداخل السوري التي كان لبيئتها وأوضاعها الجغرافية الطبيعية أكبر الأثر في استقرار الإنسان واستمرار استيطانه وقيام حلب ونشأتها الأولى ودوام إعمارها حتى أصبحت حاضرة الشمال السوري وقطب أحداثه وتطوره ونموه في أزمنة لم تكن فيها الحدود السياسية الراهنة تفصل بين الشمال السوري والعراق الشمالي، وبينهما وبين عالم جبال طوروس وكردستان وزاغروس في الشمال.

وانطلاقاً من أهمية دور الأرض والبيئة الطبيعية في رسم معالم الطرقات والدروب وتوافر العناصر والمقومات الطبيعية الأساسية لقيام التجمعات والمواقع السكانية نقسم دراستنا هذه إلى قسمين متكاملين، هما الوسط الجغرافي الطبيعي أولاً ثم الموقع الجغرافي لمدينة حلب ثانياً.

أ. الوسط الجغرافي الطبيعي لحلب:

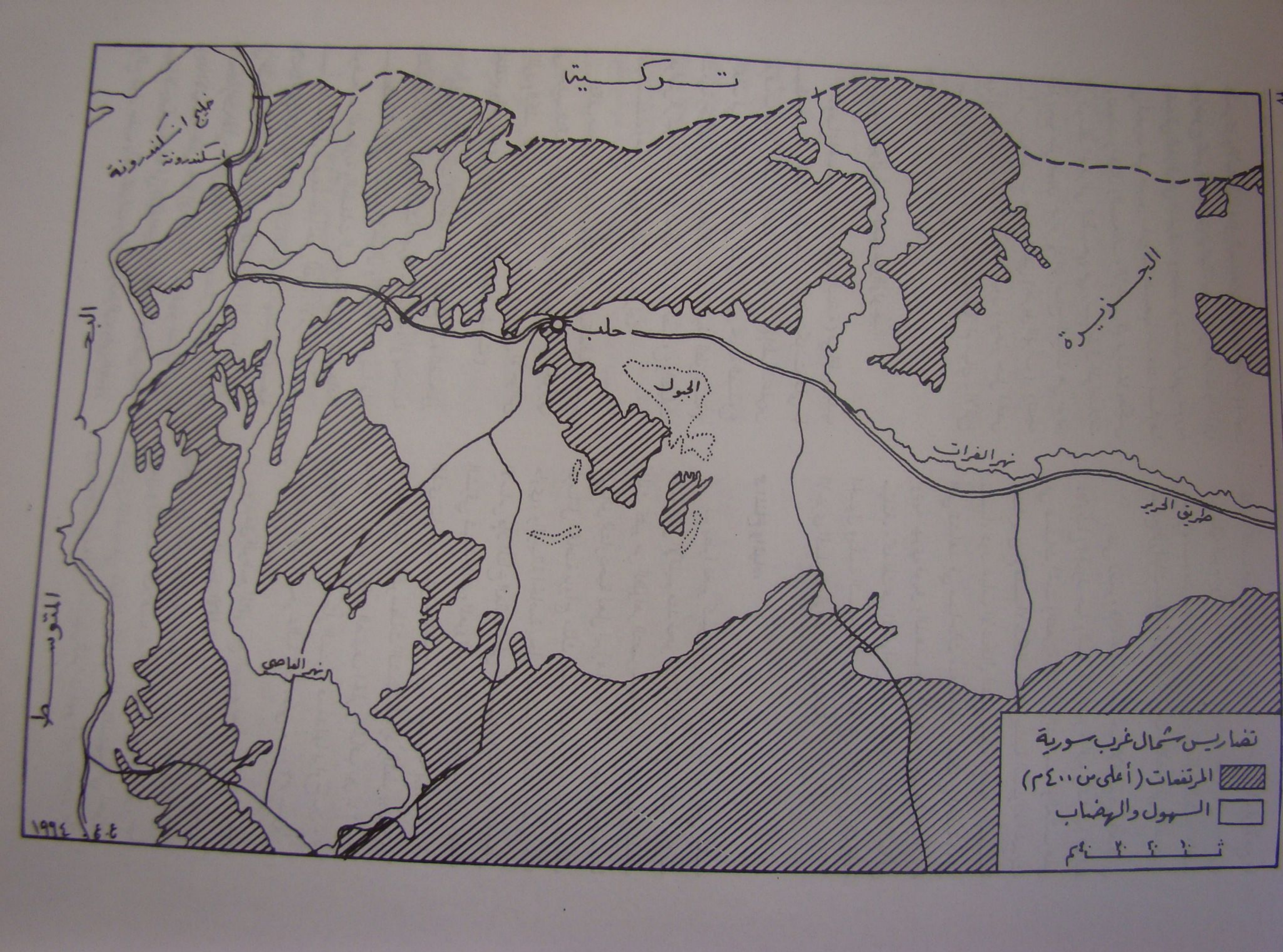
هو البيئة الجغرافية الطبيعية، وهو الظهير الجغرافي والحيز الإقليمي الطبيعي الواسع أيضاً. ويؤلف مركباً متشابكاً من الأرض والمناخ والمياه والنبات والعناصر الطبيعية الأخرى. ففي إقليم هضبة حلب و الشامية الشمالية[١]، تغلب أوضاع جغرافية طبيعية تميز العناصر المكونة للبيئة، تتمتع بخصائص معينة تفسر جوانب كثيرة تسهل دراسة طريق الحرير وغيره من طرق أخرى، كما تفسر دوافع قيام مدينة حلب في الموقع الراهن وأسبابه.

١. الأرض والسطح:

يشمل الوسط الجغرافي جميع البقاع التي تدخل في إقليم (هضبة حلب والشامية الشمالية) وهوامش الأقاليم الجغرافية المحيطة به. فصفات الوسط والإقليم وخصائصهما واحدة.

تتصف أرض الإقليم بأنها منبسط مترام شاسع ارتفاعاته المتوسطة تقع بين ٤٢٠ ـ ٥٥٠م فوق مستوى سطح البحر، لذا فإنها عبارة عن تضريس سهلي ـ هضبي، على الرغم من شيوع تسميتها بسهول حلب، إذ يؤكد واقع ارتفاعها فوق سطح البحر انتماءها إلى زمرة الهضاب الواطئة. وانبساط أرضها منحها صفة السهل الهضبي. لأن السهل هو ما يقع دون ارتفاع ٣٠٠م فوق سطح البحر من منبسطات. ويتميز السطح على الرغم من غلبة الاستواء والانبساط على تضاريسه، بالتموج الواسع ولاسيما في منطقة الشامية الشمالية وأراضي ما وراء الفرات في إقليم الجزيرة، التي تعد امتداداً طبيعياً للوسط الجغرافي لحلب وظهيرها. أما الأنحاء الغربية من إقليم (هضبة حلب والشامية الشمالية) فتتألف من منطقتين هما منطقة: هضبة حلب وسهولها في الشمال والغرب. ومنطقة: منخفض الجبول. وهنا وفي المنطقتين يتشوش انبساط السطح وتموجه بظهور تضاريس بارزة تعتوره. بعضها جبال واطئة (جبل أم فيال ـ الأقرع وارتفاعهما ٥٥٠ ـ ٦٥٠م)، وجبال مائدية (جبل الحص ٥٠٠ ـ ٥٥٠م وجبل شبيت ـ ٤٥٠م)، وبعضها الآخر منخفضات مغلقة تنتشر جنوب وجنوب شرقي حلب ولاسيما في منطقة منخفض الجبول وحوضه الغني بالمنخفضات السبخية ـ المِلحة، أكبرها سبخة الجبول (على ارتفاع ٣٠٨ ـ ٣١٥م) وسبخة رسم الروام وسبخة شبيت ـ المراغة، وسبخة الخرايج. أما منخفض المطخ المغلق، منتهى مياه سيول قويق، نهر حلب الذي قطع الأتراك مياهه عن الجريان في سورية منذ عام ١٩٢٠[٢]، فهو منخفض مغلق ومستنقع كان يعرف بـ(المرج الأحمر) قديماً، وأرضه هي أوطا منطقة في الإقليم كله (٢٦٨ ـ ٢٦٩م) فوق سطح البحر.

إن نظرة فاحصة على خريطة طبوغرافية ـ أوروغرافية للإقليم المدروس موضوعها الرئيسي هو توزيع التضاريس السهلية ـ الهضبية من جهة والهضبية ـ الجبلية من جهة أخرى. كما تظهر فيها العقبات الطبيعية الأخرى المعيقة


تركية
خليج اسكندرونة
اسكندرونة
البحر المتوسط
حلب
الجبول
الجزيرة
نهر الفرات
طريق الحرير
نهر العاصي
تضاريس شمال غرب سورية
المرتفعات (أعلى من ٤٠٠م)
السهول والهضاب
١٩٦٤

للحركة والانتقال (مثل السبخات والمستنقعات)، تبين وبوضوح كبير أن الطريق الواصلة بين حوض الفرات والجزيرة وشمالي العراق في الشرق، وحلب وشمال غربي سورية في الغرب هي طريق مفروضة طبيعياً حددت مسارها المرتفعات والجبال والسبخات والأراضي الوعرة. مما يعكس أثر الوسط الجغرافي الطبيعي في رسم طرق المواصلات التاريخية مثل طريق الحرير. إذ أن أصلح المسالك هي طريق تبدأ من ثنية الفرات حيث ينتهي (طريق الفرات)، وتتجه غرباً إلى حلب، متفادية سبخة الجبول وأوعار جبل الحص (جنوباً) وعقبات أرض مرتفعات جبل أم ميال ـ الأقرع وجبل جال الجرن (شمالاً).

٢. البنية الجيولوجية ـ الجيومورفولوجية:

الأوضاع الجيولوجية والتكتونية (البنائية) في إقليم حلب بسيطة خالية من التشويه والتعقيد. فأرضه تكونت على ما يعرف بـ(نهوض حلب) المحصور بين (وهدتي) إدلب ـ عفرين والغاب في الغرب، والفرات في الشرق، وبين حزمة الصدوع التدمرية وطياتها في الجنوب ونطاق الطيات الألبية (الطوروسية) وهوامش الركيزة العربية في الشمال، تقل فيها الصدوع والطيات المحلية باستثناء وهدتي الجبول والمطخ الصغيرتين.

تتألف صخور الإقليم من تكوينات رسوبية غالبة تنتسب إلى الحقب الثالث الجيولوجي، من الكلس والكلس الحواري والمارن والكلس الرملي، ويزيد عليها الجص والملح في الأحواض المغلقة، والبازلت في الجبال المائدية (الحص وشبيت).

وتجلل الترسبات الرباعية أغلب سطح هذه الصخور وتغشّيها، وهي قارية المنشأ نهرية ـ سيْليّة، أو بحيرية مستنقعية. وفي جميع الأحوال والأنحاء تقريباً فإن التوضعات الصخرية والطبقات الرسوبية في الإقليم هادئة نسبياً وذات ميول ضعيفة جداً حتى أفقية، الأمر الذي يفسر الانحدارات اللطيفة والمساحات السهلية ـ الهضبية المنبسطة في طبوغرافية السطح وجيومورفولوجيته، إذ يندر أن تزيد الانحدارات على ٥ درجات، وعلى مسار طريق الحرير لا يزيد الانحدار على ٧٪ إلا ما ندر. لذا فهو مسار مريح سهل لا يعيق الحركة في الاتجاهين، والحديث هنا عن الجزء الواقع شرق حلب باتجاه الفرات والجزيرة والعراق، وفي عصور قديمة كانت فيها تقنيات شق الطرق متواضعة بالموازنة مع ما هي عليه اليوم. والسطح مغطّى في أغلب أجزائه بترب حمراء وحمراء بنية متوسطية تكونت في بيئة مناخها شبه جاف، تصلح لزراعات بعلية ومروية، الحبوب والقطن في مقدمتها.

وعلى العموم فإن جيومورفولوجية الإقليم هي انعكاس للأوضاع الجيولوجية والبنائية والطبوغرافية والمناخية المؤثرة في عمليات الحت والتعرية والنقل والترسيب. والغالب على تضاريس الإقليم الأشكال التضريسية البنيوية الحديثة نسبيّاً، دون غياب الأشكال التضريسية الحتية والترسيبية التي تشاهد في مساحات متفرقة من السطوح الحتية، وفي أودية نهري قويق والذهب وروافدهما وغيرها من أودية سيْليّة، وكذلك في الأحواض والمنخفضات المغلقة كما في الجبول وبقية السبخات وفي المطخ، والأراضي الواطئة الأخرى المملوءة بالرسوبات الرباعية.

٣. المناخ والمياه:

لم يطرأ تغير كبير على الأوضاع المناخية التي كانت غالبة على الإقليم منذ نحو ثلاثة آلاف عام أو أكثر. ويؤكد ذلك كثير من الظواهر التضريسية والبقايا النباتية وكذلك الوثائق التاريخية لعل أبرزها محفوظات ماري ولاسيما الرسائل الخاصة بزواج ملك حلبي ابنته من زمري ليم ملك ماري، والرسالة الخاصة بحالة الطقس بالذات. وعلى هذا الأساس فإن المناخ الغالب على الإقليم هو النموذج المتوسطي الشرقي شبه الجاف والمعروف بـ(النموذج السوري) أيضاً، الذي تراوحت متوسطات حرارته السنوية بين ١٦ ـ ١٨ درجة مئوية، ومتوسطات الشتاء البارد والمطر بين ٥ ـ ٧ درجات، ومتوسطات الصيف الحار والجاف بين ٢٧ ـ ٢٩ درجة مئوية. أما الأمطار السنوية فمعدلها يراوح بين ٢٥٠ ـ ٣٥٠مم. وقيم التبخر عالية تزيد على ٢٠٠٠مم سنوياً.

ويتفق الوضع المائي مع الوضع المناخي والتضريسي الجيولوجي، إذ يعد الإقليم فقيراً بالمياه السطحية التي لا تتعدى ما كان يجري من مياه في نهرين داخليين هما نهرا قويق والذهب (كلاهما جاف اليوم)، إضافة إلى مياه السيول المطرية في عدد من الأودية الجافة المنتهية في أحواض ومنخفضات مغلقة. أما نهر الفرات فهو أكبر مصدر مائي

عذب، لكنه يجري على الهامش الشرقي لإقليم حلب. وجاء في معجم البلدان (ياقوت الحموي المتوفي سنة ٦٢٦هـ = ١٢٢٩م) عن نهر قويق «وهو نهر مدينة حلب... يمر في رساتيق حلب ثمانية عشر ميلاً إلى حلب ثم يمتد إلى قنّسرين إثني عشر ميلاً ثم إلى المرج الأحمر اثني عشر ميلاً ثم يفيض في أجمة هناك... وماؤه أعذب ماء وأصحّه إلا أنه في الصيف ينشف فلا يبقى إلا نزر قليلة». وهو نهر العَوجان أيضاً.

ويذكر نهر الذهب أيضاً فيقول:

«يزعم أهل حلب أنه نهر وادي بُطنان الذي يمر ببزاعة، وهو الذي يقال له عجائب الدنيا ثلاثة: دير الكَلْب ونهر الذَهَب وقلعة حَلَب، والعجب فيه أن أوله يباع بالميزان وآخره بالكيل، وتفسير ذلك أن أوله يُزرع على الحصى كالقطن وسائر الحبوب، ثم ينصب إلى بطيحة عظيمة طولها نحو فرسخين في عرض مثل ذلك فيجمد فيصير ملحاً يختار منه أكثر نواحي الشام ويباع بالكيل».

وفيما عدا ذلك يعتمد الإقليم على المياه الجوفية التي ترفع من الآبار قديماً وبوساطة المضخات الآلية في الوقت الراهن. وقنوات الري من الفرات وأنابيب جر المياه إلى مدينة حلب. أما القنوات الضمنية (الفجارات أو الأقنية الرومانية) القديمة فقد اندثرت. وترفع المياه الجوفية من حوض حلب الهيدروجيولوجي الذي يقدر مخزونه بنحو ٤٨٠ مليون متر مكعب.

٤. النبات (النبيت):

يقتصر نبيت إقليم حلب على مساحات محدودة تنمو فيها أنواع شتى من الأعشاب والنباتات الطبيعية المتقهقرة. ويمثل الغطاء النباتي اليوم مرحلة متدهورة جداً من غطاء نباتي سابق غني وكثيف مؤلف من النباتات العشبية، وأنواع من الأشجار المقاومة للظروف المناخية التي كانت سائدة بعد انحسار تأثير العصور المطيرة (المقابلة للعصور الجليدية في العروض الجغرافية العليا)، مثل البطم والبلوط، وتقدر نسبة كثافة الأشجار والشجيرات في الإقليم قبل ما يناهز ١٠,٠٠٠ سنة بنحو ١٥ـ٣٠٪ من المساحة. ترتفع في وادي الفرات والأودية النهرية الأخرى لتصل إلى تغطية تامة (١٠٠٪) في أغلب أجزاء أشرطة الزور (السهل الفيضي اللحقية ـ النهرية، ولاسيما في وادي الفرات على حدود الإقليم الشرقية، حيث مازالت بقايا أشجار الحور الفراتي (الغَرَب) تشهد على ذلك. (أطلس توبنغن للشرق الأوسط ـ اللوحة 12-5-A. (١٩٩٠).

ويرجع السبب في تدهور الغطاء النباتي السابق واضطراب أوضاع التوازن البيئي الذي ساد الإقليم.. إلى بدايات تحول الإنسان من جامع ولاقط للموارد الطبيعية وصياد للطرائد والحيوانات البرية إلى مُزارع مستقر يعمل في الأرض لإنتاج أنواع متعددة من المحصولات الزراعية ـ الغذائية ثم الزراعية ـ الصناعية فيما بعد، وكذلك إلى مربٍ للحيوانات التي دجّنها لتقدم له الغذاء وغيره ولاستخدامها في قضاء حاجاته (يرجع تدجين الغنم والماعز إلى نحو ٦٥٠٠ ـ ٨٠٠٠ ق.م، والبقر إلى نحو ٦٥٠٠ ـ ٧٢٥٠ق.م والحمير إلى نحو ٣٠٠٠ق.م).

إن النتائج الحتمية لظهور الزراعة قبل نحو ٩٠٠٠ سنة ونيف، وتدجين الحيوانات وتربيتها في المراعي الطبيعية، ولانتشار الاستقرار وازدياد أعداد السكان.. واستمرار التطور في مضمار الحضارة الإنسانية وتطور تقنيات استغلال البيئة الطبيعية ومواردها... هي تراجع المساحات المغطاة بالنباتات الطبيعية وانقراض أنواع كثيرة منها وتدهورها، لصالح الحقول والمزارع والمنشآت الاقتصادية والعمرانية التي أقامها الإنسان، ولاسيما في المناطق السهلية والسهلية ـ الهضبية وأودية الأنهار في إقليم حلب وخارجه. ليس هذا فحسب. بل أخذت الفيافي المخصصة للرعي تتقلص مساحاتها وتتقهقر أمام التوسع في المساحات المزروعة وأمام الزحف العمراني الريفي والحضري (المديني)، منذ آلاف السنين التي عاشت عهود مد وجزر، محصلتها لصالح المد السكاني ـ العمراني.

٥. خصوصية الوسط الطبيعي لإقليم حلب:

يتمتع إقليم حلب بمجموعة من الميزات والخصائص الطبيعية التي منحته وضعاً جغرافياً وخصوصية بيئية مهمة في بلاد الشام. وتظهر هذه الخصوصية من نتاج تشابك العناصر الجغرافية الطبيعية التي مر الحديث عنها والتي تأتي الأرض وتضاريس سطحها وجيومورفولوجيتها في مقدمتها، في إطار التعريف بالأرضية البيئية الطبيعية لطريق الحرير وموقع مدينة حلب.

وكخلاصة لما تقدم فإن الخصوصية المميزة للإقليم هي أنه منبسط متموج من سهل ـ هضبي منخفض، حتى ضعيف الارتفاع، انحداراته لطيفة وسطوحه لينة، يتألف من شريط أرضي محوره شرقي ـ غربي، هو في الواقع امتداد طبيعي لسهول الجزيرة ووادي الفرات وبلاد الرافدين واستمرار لتضاريسها المنخفضة والمنبسطة ـ المتموجة. ويشكل هذا الشريط الأرضي النهاية الغربية للسهول والتضاريس المذكورة (الجزيرة والرافدين). حيث يتوغل لما بعد مدينة حلب باتجاه المرتفعات الغربية والجبال، مندساً بين جبال طوروس وأقدامها في الشمال. والجبال الوسطى في الجنوب. فهو لسان أرضي واطىء مفتوح شرقاً ومحاط بالجبال والمرتفعات من الشمال والغرب والجنوب، تقع في جزئه الغربي مدينة حلب في موقع لا يمكن أن تكون إلا فيه لما يمتلكه هذا الموقع من خصائص نتعرض لها فيما يلي من فقرات.

ب ـ الموقع الجغرافي لحلب:

تقع مدينة حلب على ارتفاع يراوح بين ٣٧٥ـ٣٩٠م فوق مستوى سطح البحر في منخفض مستو من الأرض أغلبه إلى الشرق من مجرى نهر قويق الذي تجاوزه العمران إلى غربه اليوم. ويشغل هذا الموقع من اللسان الأرضي المذكور في الفقرة السابقة، مكان العين والثغر الغربي المتقدم من ظهير جغرافي يتجاوز حدود إقليم حلب إلى الجزيرة وبلاد الرافدين حتى بغداد ومايليها. وهو موقع فريد لا نجد مثيلاً له في شمالي سورية، عند تقاطع خط العرض الشمالي ٣٦ درجة و١٢ دقيقة و١٣ ثانية مع خط الطول الشرقي ٣٧ درجة و٩ دقائق و٣٠ ثانية (مركز المدينة). ويتمتع هذا الموقع بكثير من الخصائص والميزات أبرزها أنه:

١ـ يبعد مسافات متقاربة عن مجرى نهر الفرات وواديه في الشرق، وعن البحر المتوسط في الغرب، وعن أقدام جبال طوروس في الشمال، وعن بدايات الجبال الوسطى في الجنوب، حيث يحوم معدل المسافات حول ٨٠ـ١٠٠كم.

٢ـ يحتل مكاناً استراتيجياً مهماً، إذ قامت المدينة في منخفض من الأرض يشبه وعاءً ترتفع حافاته تلالاً كلسية تعلو حتى ٤٢٠ ـ ٤٣٠م فوق سطح البحر ماعدا حافته الجنوبية المنخفضة التي يعبرها وادي نهر قويق الذي يشق أرض المنخفض قادماً من الشمال نحو الجنوب. ويراوح فرق الارتفاع العام بين أرض المنخفض والهضاب المطلة عليه والمحيطة به بين ٤٠ ـ ٤٥م تقريباً، لكن ذلك لا يعيق المواصلات من حلب وإليها لكثرة الممرات والمعابر بين أرض المنخفض والهضاب.

وتتوسط هذا المنخفض تلة كبيرة تعرف بـ (تلة القلعة) ارتفاعها ٤٣٧م فوق سطح البحر، وارتفاعها فوق أرض المنخفض ٤٥م تقريباً، وبغض النظر عن الآراء المعروفة عن موقع النواة الأولى لمدينة حلب، جنوبي المدينة ثم موقع تلة السوداء، ثم موقع العقبة فالتوسع المتأخر للمدينة الذي احتوى تلة القلعة وما حولها، فإن هذا الوضع الجغرافي خاصيته دفاعية طبيعية جعلت من حلب ملجأ للسكان يحميهم عبر عصور التاريخ. وقد أكد المؤرخون والباحثون في المدن على أهمية الطبيعة الدفاعية لموقع حلب، وقدموها على الأهمية التجارية والصناعية. فوجود حلب واستمرار هذا الوجود والبقاء نتيجة أساسية لأهمية الموقع ذي القيمة الاستراتيجية الكبيرة التي وفرت لحلب الحماية الطبيعية والدفاع السهل.

٣ـ يتميز الموقع الجغرافي لحلب بأنه ملتقى لكافة الطرقات الرئيسية القادمة من الشرق والداخل الآسيوي إلى شمالي سورية، والخارجة منها إليه. إذ تفرض محاور التضاريس وتوزعها الجغرافي في الشمال السوري والعراقي على القوافل التجارية والعابرين للإقليم مهما تنوعت أهدافهم، أن تسير على محاور الطرقات المريحة والسهلة، التي تتوفر على طولها الخدمات الضرورية على مسافات متباعدة كافية، كما تؤمن لمستخدمي تلك الطرقات الحماية والأمان. ولما كانت التضاريس المحيطة بالظهير الجغرافي لمدينة حلب المؤلف من لسان سهلي ـ هضبي منبسط شبه خال من العوائق الطبيعية، استخدمته الطرقات للوصول إلى حلب والانطلاق منها أيضاً بيسر، ولاسيما الطريق التي عرفت بطريق الحرير في عصور وُجدت الطريق قبلها. واستمر استخدامه في التجارة وغيرها بعدها، مما يؤكد على أهمية الوسط الجغرافي لإقليم حلب من جهة، وعلى أهمية الموقع الجغرافي للمدينة من جهة ثانية.

٤ـ فرض موقع المدينة على الطرقات المؤدية إلى الأصقاع الجبلية المحيطة بإقليم حلب، وإلى البلدان الواقعة وراء الجبال، أن

تنطلق من هذا الموقع بالذات وأن تنتهي إليه أيضاً. وذلك عبر ممرات جبلية ومغارات محددة أقرب من غيرها من موقع مدينة حلب، وأيسر استعمالاً من قبل الإنسان والحيوان.

٥ـ موقع حلب الجغرافي مكان نموذجي لاستقبال الواردات والقادمين إليها من الشرق الآسيوي، ولتصدير ما يردها باتجاه الشمال والغرب إلى آسيا الصغرى وعالم البحر المتوسط، وباتجاه الجنوب السوري. وبالعكس فحلب موزع ومستقبل تجاري وحضاري قديم تحميه طبيعة استراتيجية ومقومات دفاعية لا تتوفر في الشمال السوري إلا فيها.

٦ـ على الرغم من فقر إقليم حلب بالمياه، فإن الأهمية الاستراتيجية ـ الدفاعية في الأصل والأهمية التجارية للموقع الجغرافي للمدينة فيما بعد، جعلا حلب تقنع بالمصادر المائية القليلة المتوافرة فيها وحولها، حتى عندما قطع الأتراك عنها مياه نهر قويق.

إن جر مياه الفرات في خمسينيات القرن العشرين، وتزويد حلب بوفرة من المياه العذبة شاهد آخر على الإحساس بأهمية الموقع الجغرافي لعاصمة الشمال السوري وإدراك صحيح لدوره في النمو والتطور والتنمية، وذلك على الرغم من قطع شرايين اتصال حلب بأنحاء ظهيرها الجغرافي الشمالي والشمالي الغربي بعد رسم حدود سورية مع تركية واقتطاع لواء اسكندرونة، وإغلاق طريق اتصال حلب بثغرها على البحر المتوسط، وهو مدينة اسكندرونة وميناؤها، وقيام الحواجز السياسية ـ الحدودية بينها وبين مدن جنوب جبال طوروس والداخل الأناضولي وراءها.

٧ـ يحتل موقع حلب الجغرافي مكاناً متوسطاً بين مواطن الحضارات القديمة ولاسيما بين أقوام الجبال وحضاراتهم في الشمال، وأقوام السهول والهضاب وحضاراتهم في الجنوب والشرق، وكذلك أقوام البحر المتوسط وحوضه. الأمر الذي دعا إلى التقاء الأفكار والثقافات وتبادل المنجزات والمنتجات والسلع. وهذا الالتقاء والتبادل الحضاري والتجاري بحد ذاته كان عاملاً مؤثراً وفعالاً في تقوية دور الموقع الجغرافي وزيادة أهميته، فالسبب والنتيجة يتبادلان الأدوار بالنسبة لحلب.

خلاصة ونتيجة:

كان للوسط الجغرافي الطبيعي وميزاته، وللموقع الجغرافي وخصائصه الدور الأول والأساسي في قيام التجمع السكاني الذي تطور ونما واتسع ليصبح مدينة حلب. وهي مدينة قديمة جداً وجدت قبل ظهور الحرير وتجارته، كما وجدت قبل تسمية أحد الطرقات المؤدية إليها والخارجة منها بـ(طريق الحرير)، فوجود حلب على مفترق الطرق التجارية الرئيسية سابق لوجود طريق الحرير. فالطريق كانت معروفة، أُخذت هذه التسمية من سلعة الحرير التي نقلت على امتدادها في زمن وقرون ازدهرت فيها صناعته وتجارته وكثر الطلب عليه. وباختصار فإن طريق الحرير هي واحدة من شرايين التجارة القديمة المارة بحلب، وكان لحلب دور بارز في جذب تجار سلعة الحرير والقوافل الناقلة لها، مع سلع أخرى، كما كان لها دور المنشط لحركة التبادل على الطرق التجارية في شمالي سورية عامة وعلى طريق الحرير خاصة.

وفي الواقع فإن مدينة حلب في موقعها الجغرافي هذا كانت واحدة من أشهر المحطات التجارية وأكثرها نشاطاً على طريق الحرير، وعلى محور التجارة بين آسيا من جهة وأوربة وعالم البحر المتوسط من جهة ثانية، وحلب كانت وراء شهرة طريق الحرير وذيوع صيتها واسمها واكتسابها أهمية خاصة على امتداد قرابة ١٠٠٠ عام من القرن الثاني قبل الميلاد حتى القرن الثامن الميلادي. لكنها، أي حلب، بالمقابل ازدهرت ونمت وأثْرَت اقتصادياً وتطورت اجتماعياً بمرور سلعة الحرير عبرها والتعامل بتجارتها، مما متن مركز حلب وقوّى من وظيفتها التجارية التي تعد من أهم وظائفها حتى اليوم.

الحواشي

(١) تقسم سورية إلى ثمانية أقاليم جغرافية رئيسية هي: إقليم الجزيرة والفرات، وإقليم هضبة حلب والشامية الشمالية، وإقليم حوض العاصي، وإقليم الساحل والجبال الساحلية، وإقليم الوسط السوري، وإقليم البادية (الصحراء السورية، وإقليم الجنوب الغربي، وإقليم الجبال الغربي، وإقليم الجبال العالية (عبد السلام ١٩٩٠ ـ الأقاليم الجغرافية السورية ص٨٧).

(٢) جفت مياه نهر قويق تماماً عام ١٩٣٣. فلا تجري فيه سوى السيول الشتوية المحلية.